فصل[1]

ثمَّ تأمَّل الحكمةَ في مقادير الليل والنَّهار تـجِدْها علىٰ غاية المصلحة والحكمة، وأنَّ مقدار اليوم والليلة لو زاد علىٰ ما قُدِّرَ عليه أو نَقَصَ لفاتت المصلحةُ واختلَّت الحكمةُ بذلك، بل جُعِل مِكيالهما أربعةً وعشرين ساعة، وجُعِلا يتقارضان الزيادة والنُّقصان بينهما، فما يزيدُ في أحدهما من الآخر يعودُ الآخرُ[2] فيستردُّه منه.

قال الله تعالىٰ: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ ﴾ [فاطر: ١٣، الحديد: ٦]، وفيه قولان[3]:

أحدهما: أنَّ المعنىٰ: يُدْخِلُ ظُلمةَ هذا في مكان ضياء ذاك، وضياءَ هذا في مكان ظُلمة الآخر، فيُدْخِلُ كلَّ واحدٍ منهما في موضع صاحبه.

وعلىٰ هذا، فهي عامَّةٌ في كلِّ ليلٍ ونهار.

والقول الثَّاني: أنه يزيدُ في أحدهما ما ينقُصُه من الآخر، فما نقَصَ منه يَلِجُ في الآخر لا يَذهبُ جملة.

وعلىٰ هذا، فالآيةُ خاصَّةٌ ببعض ساعات كلٍّ من الليل والنَّهار في غير زمن الاعتدال؛ فهي خاصَّةٌ في الزَّمان وفي مقدار ما يَلِجُ في أحدهما من الآخر، وهو في الأقاليم المعتدلة غاية[4] ما تنتهي إليه الزيادة خمسَ عشرة

(١) «الدلائل والاعتبار» (٦)، «توحيد المفضل» (٨٦ - ٨٧).

(٢) (ن): «يعود إلى الآخر».

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (٦/ ٣٠٢، ٢٠/ ٤٥٠، ٢٣/ ١٧٠).

(٤) «غاية» ليست في (ق، ت، د).

ساعة، فيصيرُ الآخرُ تسعَ ساعات، فإذا زاد علىٰ ذلك ٱنحرفَ ذلك الإقليمُ في الحرارة أو البرودة إلىٰ أن ينتهي إلىٰ حدٍّ لا يسكنُه الإنسانُ ولا يتكوَّنُ[1] فيه النَّباتُ.

وكلُّ موضعٍ لا تقعُ عليه الشمسُ لا يعيشُ فيه حيوانٌ ولا نبات[2]؛ لفَرْطِ بردِه ويُبْسِه، وكلُّ موضعٍ لا تفارقُه كذلك؛ لفَرْط حرِّه ويُبْسِه.

والمواضعُ التي يعيشُ فيها الحيوانُ والنَّباتُ هي التي تطلُعُ عليها الشمسُ وتغيب، وأعدلها المواضعُ التي تتعاقبُ عليها الفصولُ الأربعة، ويكونُ فيها ٱعتدالان: خريفيٌّ وربيعيٌّ.

فصل[3]

ثمَّ تأمَّل إنارةَ القمر والكواكب في ظُلمة الليل، والحكمة في ذلك؛ فإنَّ الله تعالىٰ[4] ٱقتضت حكمتُه خلقَ الظُّلمة لهدوء الحيوان وبَـرْدِ الهواء علىٰ الأبدان والنَّبات، فتُعادِلُ حرارةَ الشمس، فيقومُ النَّباتُ والحيوان.

فلمَّا كان ذلك مقتضىٰ حكمته شابَ الليلَ بشيءٍ من الأنوار، ولم يجعله ظُلمةً داجيةً حِنْدِسًا[5] لا ضوء فيه أصلًا، فكان لا يتمكَّنُ الحيوانُ فيه من شيءٍ من الحركة ولا الأعمال.

---

(١) (ح): «ولا يكون».

(٢) انظر: «الوابل الصيب» (١٢٣).

(٣) «الدلائل والاعتبار» (٦)، «توحيد المفضل» (٨٢).

(٤) (ق): «أن الله تعالى».

(٥) الحِندِس: الظُّلمة، أو شدَّتها. «اللسان».

ولـمَّا كان الحيوانُ قد يحتاجُ في الليل إلىٰ حركةٍ وسيرٍ وعملٍ[1] لا يتهيَّأ له بالنَّهـار؛ لـضيق النَّهـار، أو لـشدَّة الحـرِّ، أو لخوفـه بالنَّهـار؛ كحـال كثـيرٍ مـن الحيوانات= جعَل في الليل من أضواء الكواكب وضوء القمر ما يتأتَّىٰ فيه معه أعمالٌ كثيرة؛ كالسَّفر والحرث وغير ذلك من أعمال أهل الحُروث والزُّروع.

فجعَل ضوءَ القمر بالليل معونـةً للحيوان علىٰ هـذه الحركـات، وجعَل طلوعَه في بعض الليل دون بعضٍ مع نقص ضوئه عن ضوء الشمس لئلَّا يستويَ الليلُ والنَّهار، فتفوتَ حكمةُ الاختلاف بينهما والتَّفاوت الذي قدَّره العزيزُ العليم.

فتأمَّل الحكمةَ البالغةَ والتَّقديرَ العجيبَ الذي اقتضىٰ أن أعان الحيوانَ علىٰ دولة الظَّلام بجُندٍ من النُّور يستعينُ به علىٰ هذه الدَّولة المظلمة، ولم يجعل الدَّولةَ كلَّها ظُلمةً صِرفًا بل ظُلمةً مشُوبةً بنور؛ رحمةً منه وإحسانًا.

فسبحان من أتقن ما صنَع، وأحسن كلَّ شيءٍ خَلَقه.

فصل[2]

ثـمَّ تأمَّـل حكمتَـه تبـارك وتعـالىٰ في هـذه النُّجـوم، وكثرتهـا، وعجيـب خَلقِها، وأنها زينةٌ للسَّماء، وأدلَّةٌ يهتدىٰ بها في طرق البرِّ والبحر، وما جعَل فيها من الضوء والنُّور بحيثُ يمكنُنا رؤيتُها مع البُعد المُفرِط، ولولا ذلك لم يحصُل[3] لنا بها الاهتداءُ والدَّلالةُ ومعرفةُ المواقيت.

---

(١) (ت): «حركة وتبين وعمل». (ن، ح): «حركة ومسير وعمل».

(٢) «الدلائل والاعتبار» (٧)، «توحيد المفضل» (٨٤ - ٨٥).

(٣) (ق): «يجعل».

ثمَّ تأمَّل تسخيرَها منقادةً بأمر ربها تبارك وتعالىٰ، جاريةً علىٰ سَنَنٍ واحدٍ اقتضتهُ حكمتُه وعلمُه، لا تخرُج عنه؛ فجعَل منها البروجَ والمنازل، والثَّوابتَ والسيَّارة، والكبارَ والصِّغارَ والمتوسِّط، والأبيض الأزهرَ والأبيض الأحمر، ومنها ما يخفىٰ علىٰ النَّاظر فلا يدركه.

وجعَل منطقةَ البروج قسمين: مرتفعةً ومنخفضة، وقدَّر سيرَها تقديرًا واحدًا، ونزَّل الشمسَ والقمرَ والسيَّارات منها منازلها؛ فمنها ما يقطعُها في شهرٍ واحدٍ ـ وهو القمر ـ، ومنها ما يقطعُها في عام[1]، ومنها ما يقطعُها في عدَّة أعوام، كلُّ ذلك مُوجَبُ الحكمة والعناية.

وجعَل ذلك أسبابًا لِـمَا يُحْدِثُه سبحانه في هذا العالم، فيستدلُّ بها النَّاسُ علىٰ تلك الحوادث التي تقارنها؛ لمعرفتهم بما يكونُ مع طلوع الثُّريَّا إذا طلعَت، وغروبها إذا سَقَطَت من الحوادث التي تقارنها، وكذلك غيرُها من المنازل والسيَّارات.

ثمَّ تأمَّل جَعْلَه سبحانه بناتِ نَعْشٍ وما قَرُبَ منها ظاهرةً لا تغيب؛ لقُربها من المركز، ولما في ذلك من الحكمة الإلهيَّة، وأنها بمنزلة الأعلام التي يهتدي بها النَّاسُ في الطُّرق المجهولة في البرِّ والبحر، فهم ينظرون إليها وإلىٰ الجدي والفَرقدين[2] كلَّ وقتٍ أرادوا من الليل[3]، فيهتدون بها حيث شاؤوا.

---

(١) من قوله: «وهو القمر» إلى هنا، ساقطٌ من (ت).

(٢) «الثريا» و«بنات نعش» و«الجدي» و«الفرقدان» كواكبُ معروفة.

(٣) «من الليل» ليست في (ح، ن).